ثمود

٢

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء المدرسية مكتبة

المكونات الأولى للثقافة العربية

تاليف ـ د . عزالدين اسماعيل
(منشورات وزارة الاعلام)

عرض ـ د . جليل كمال الدين
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

ان هذا الكتاب من الكتب الحديثة التي صدرت في بغداد ؛ عن وزارة الاعلام . والكاتب اديب عربي معروف من مصر ، واشتهر بمؤلفاته النقدية وبحوثه في قضايا علم الادب والنقد الادبي التي نشرت تباعا في القاهرة وبيروت كما صدرت له مسرحية شعرية .

اما كتابنا هذا اول كتاب يصدر في بغداد . وكان قد قدم مسوداته ايام حضر مهرجان ابي تمام في الموصل .

وما من شك ان هذه الكتب التي تصدر لادباء عرب في بغداد ، خطوة رائعة خطتها وزارة الاعلام في حقل توثيق الاواصر العربية الثقافية ، وتعزيز جهود الوحدة الثقافية العربية ، والقضاء على الانعزال والاقليمية . وقد نص الميثاق الوطني والتقرير السياسي ؛ كل بدوره ، على ضرورة الاستقطاب الثقافي والاعلامي العربي الثوري ؛ فاكد التقرير السياسي ؛ مثلا ، (ص ٢٣٩ ـ اصدار دار الثورة) على اهمية « استقطاب العدد الاوسع من الفنانين والمثقفين والكتاب ورجال الاعلام الى جانب الثورة واشراكهم اشراكا فعالا في العملية الثورية التي يقودها الحزب في هذا الميدان والعمل على استقطاب الكفاءات العربية في هذه المجالات كافة » .

ومن الكتب الاخرى التي صدرت لادباء عرب في بغداد : « دراسات في الادب الاوربي المعاصر » لشفيق مقار ، و « الارض والدم » لمحمد عفيفي مطر ودواوين شعرية اخرى عديدة لشوقي بغدادي واحمد سليمان الاحمد ومحمود حسن اسماعيل وممدوح عدوان ؛ وكثير من المجاميع القصصية والدراسات النظرية والتطبيقية في حقول الفن والفكر والثقافة المختلفة .

* * *

يقع كتابنا موضوع العرض في نحو ٢٤٨ صفحة وينقسم الى خمسة فصول رئيسة ، وقد قدم له مؤلفه بمقدمة .

تحدث الفصل الاول عن الشعر ، اما الفصل الثاني فيختص بالنثر ، ويأتي الفصل الثالث ليتخذ الفن والعلم موضوعا له ، واختص الفصل الرابع بالمعارف العامة ، اما الفصل الخامس وهو الفصل الختام فقد تحدث عن القرآن الكريم والحديث الشريف .

ونفهم من مقدمة الدكتور عزالدين اسماعيل انه وجد الحاجة ماسة لاصدار مثل هذا الكتاب ؛ من خلال تدريسه الادب الجاهلي لطلبة قسم اللغة العربية بكلية الاداب في جامعة القاهرة ، ونضيف نحن فنقول ان الحاجة ماسة لهذا الكتاب ليس على الصعيد الاكاديمي فحسب بل على صعيد الثقافة

WWW.ATTAWEEL.COM

العامة ، والثقافة الجماهيرية ايضا . اي انه يلزم القارىء المتوسط لزومه للطالب في الاقسام الادبية في الجامعات العربية . فالموضوع الذي يعالجه موضوع حيوي جدا . لابد للعربي في مثل هذه الظروف المصيرية ان يعيره انتباهه الشديد . وان يلم به . ولو الماما الحد الأدنى . ذلك ان المكونات الاولى لثقافتنا العربية امر ينبغي الاحاطة به ومعرفته معرفة جيدة ، باعتبار ان معرفة البدايات والاصول تجدي كثيرا في معرفة الفروع واللواحق .

وقد تحدث الكاتب عن الثقافة العربية قبل الاسلام في فصوله الاربعة الاولى . اما الثقافة العربية بعد الاسلام والتي نسميها الثقافة العربية الاسلامية فقد كرس لها الكاتب الفصل الخامس من كتابه .

* * *

تناول الفصل الاول اوليات الشعر العربي ونظام اوزانه وقوافيه ووقف عند فنيه الرئيسين : **الرجز والقصيد** ، واوفى بدراسة اغراض كل من الفنين . من خلال رؤية الكاتب الاجتماعية لواقع العصر ، وهي رؤية لا يشوبها ضباب الدراسات الاكاديمية الضيقة ، وان احتاجت الى كثير من التفصيل والايضاح او لنقل الى شيء من الدراسة المقارنة ، فالشعر العربي القديم لم يولد فجأة ، ولابد له من مراحل مر بها ، ولابد لها من اصول ، ولابد له من مؤثرات تأثر بها واثر فيها ، فالعلاقة جدلية ابدا بين الظواهر المختلفة .

والكاتب يعتقد ان سجع الكهان يشير الى المصدر السحري للشعر العربي على حد قوله . بل هو يعتقد ان الامثال تشير الى المصدر الواقعي العملي له في حياة الناس اليومية ، ولابد ان يكون هذان المصدران قد تآزرا معا في دفع التعبير الشعري الى الظهور والانتشار بين الناس .

وفي العلاقة بين الرجز والشعر ، يؤكد الكاتب ان الرجز كان من الشعر في مراحله الاولى ، ثم صار يستخدم فيما بعد كالاوزان الاخرى التي جاءت بعده ، والتي كانت تقال فيها القصائد .

ويورد الكاتب نماذج مختلفة للرجز الجاهلي تختلف باختلاف الاغراض التي قيلت فيها . ويسوق نموذجا لرجز الحداء يعبر فيه الحادي عن حنينه الى الاحبة الذين فارقهم ويخلع كل هذه المشاعر على ناقته . وكانهما سواء في انفعالاتهما بغني كل منهما عن الاخر ، ولكنهما مختلفان في منحاهما . فهي تعلن الشوق ، اما هو فيخفيه : ـ

دع المطايا تشم الجنوبا
ان انها لتبغي عجيبا
حنينها وما استكت لغوبا
يشهد ان قد فارقت حبيبا
ما حملت الا فتى كئيبا
يسر مما اعلنت نحيبا
لو ترك الشوق لها قلوبا
اذن لآثرت بهن النيبا
ان الغريب يسعد الغريبا

والكاتب يتفق مع مؤرخي الأدب العربي في رأيهم القائل ان النظام الموسيقي لوزن الرجز قد تولد نتيجة التجارب بين حركة الابل في مسيرها وبين حاديها . بل ان اسم الرجز نفسه يعود الى الرجز الذي ينتاب الناقة او البعير وهو ارتعاد في المؤخر والافخاذ عند النهوض .

وكان للمراة دور كبير في انهاض همم الرجال في الحروب والقتال فكانت تقول الرجز وتتقنه ، كتلك القائلة تحض قومها على الاستماتة :

وغى وغى وغى وغى
حر الحرار والتظى
وملئت منه الربا
يا حبذا المحلفون بالضحى

وفي ثنايا هذا الفصل ، وهو فصل كبير وهام ، يدافع الكاتب عن الأصل العربي الخالص للشعر العربي القديم ، وينفي عنه تهمة الاصل الفارسي او الروماني . فالشعر العربي نشا عربيا صرفا ، وتطور في اطاره ، وان كان قد اغتنى بالروافد . اما الفرس فقد اقتبسوا ، فيما بعد ، اوزان الشعر العربي ونظموا شعرهم فيها . بل اني لاحظت ابام وجودي في داغستان السوفيتية ضيفا على شاعرها الكبير رسول حمزاتوف ان العروض العربي قد وصل داغستان ايضا ، وكان ممن نظم به ابو الشاعر ، وهو حمزة تساداسا . وثمة دراسة لأبي المستشرقين السوفيتي اغناطيوس كراجكوفسكي عن (الادب العربي في القفقاس الشمالي) تؤكد هذه الحقيقة وتفصل فيها .

وكانت العرب تحترم الشاعر اذا نبغ في قبيلة من القبائل ، فكانت تؤلبم له ، وتفاخر به ، وتعتبره مجدها ولسانها . كما كانت تخشى الكلمة الشعرية والهجاء بصفة خاصة . فيورد الكاتب امثلة لحالات تيّدت فيها بعض القبائل السنة

الشعراء من القبائل الاخرى لتمنعها من الهجاء ، مثلما صنع بنو تميم بالشاعر عبد يغوث الحارثي حين اسروه في يوم الكلاب ، وقد ذكر الشاعر نفسه صنيعهم هذا حين قال :

اقول وقد شدّوا لساني بنسمة
امعشر تيم أطلقوا من لسانيا
وتضحك مني شيخة عبشمية
كان لم تري قبلي اسيراً يمانيا

* * *

وتحدث الكاتب عن المعلقات السبع او الخمس او العشر على اختلاف ما روى الرواة . ثم تحدث عن تدوين الشعر والانتحال الذي طرا عليه ؛ ثم المختارات المختلفة ، ثم الحماسات واختتم الفصل بالحديث عن دور الخليل بن احمد الفراهيدي في صياغة عروض الشعر واوزانه .

وتحدث الفصل الثاني عن **النثر الجاهلي** . فوقف طويلا عند سجع الكهان والامثال والخطابة، كما تحدث اخيرا عن الرسائل الكتابية . واكد الكاتب ؛ هنا ، ان الكهانة وفدت الى العرب مع الكهنة الكلدانيين الذين وفدوا اليهم في الزمن القديم ومعهم الكثير من المعارف . ومن كهان الجاهلية الشهيرين (خنافر بن التوأم الحميري) و (سوار بن فارب الدوسي) و (شق) و (سطيح). كما كانت هناك الكاهنات ايضا ، ومنهن سعدى بنت عزيز بن ربيعة ؛ خالة عثمان بن عفان . وقد روى عنه انه قال : « لما زوج النبي بنته رقية من عتبة بن ابي لهب . وكانت ذات جمال رائع ، دخلتني حسرة او كالحسرة ان لا اكون قد سبقت اليها . وادركت خالته الكاهنة ما هو عليه من الضيق . وكان ذلك قبل إسلامه . فقالت له : ان محمد بن عبدالله رسول من الله جاء بتنزيل من الله يدعو الى الله . مصباحه مصباح . وقوله صلاح ودينه فلاح . وامره نجاح . وقرنه نطاح . ذلت له البطاح . ما ينفع الصياح لو وقع الذباح وسلمت الصفاح ومدت الرماح » .

وتحدث الكاتب عن **الأمثال** ، واورد نماذج للمثل الجاهلي ، والمثل الاسلامي . فذكر بعض الأمثال المنسوبة الى النبي محمد (ص) ، ومنها : «الدال على الخير كفاعله» ، «الاعمال بخواتيمها»، « اشتدي ازمة تنفرجي » ، « الاعمال بالنيات » ، « لكل امرىء ما نوى » ، « خادم القوم سيدهم »، « ساقي القوم آخرهم شرابا » .

وافاض الكاتب في الخطابة التي اشتهر بها العرب ، وتفوقوا فيها على غيرهم من الشعوب والاقوام كالفرس واليونان والرومان . وكان خطيب العرب يهزا بكسرى الفرس ويتحداه في ديوانه وعاصمة ملكه ؛ كقول الحارث بن ظالم المري : (ان من آفة المنطق الكذب . ومن لؤم الاخلاق الملق . ومن خطل الراي خفة الملك المسلط فان اعلمناك ان مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وانقيادنا لك عن تصاف . ما انت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق . ولكنه الوفاء بالعهود ، واحكام وارث العقود والامر بيننا وبينك معتدل ما لم يات من قبلك ميل او زلل) .

* * *

وتحدث الكاتب في **الفصل الثالث** من كتابه عن فنون وعلوم كانت شائعة في الجاهلية وفي اطوار الاسلام الاولى ومنها القصص والسير والمغازي ، والتاريخ وكتابة التاريخ .

ووقف الكاتب عند الاسطورة العربية ، فاوضح ان العرب في القديم قد شخصوا الاجرام السماوية وانشاوا لها بعض الاساطير . من ذلك ما يروى ان (الدبران) خطب الثريا الى القمر ، لكن الثريا رفضت وامتنعت ، ومضت عنه ، وهي تقول : « ما اصنع بهذا السبروت الذي لا مال له ؟ ... واخبر القمر الدبران بما قالت الثريا ، فمضى الدبران بجميع نياقه ، وراح يسوقها امامه صداقا للثريا ، ويتبعها حيثما توجهت .

وتحدث الكاتب وافاض عن ابطال العرب في القصص والسير والمغازي مثل سيف بن ذي يزن ، الذي اخرج الاحباش من اليمن ، وعنترة العبسي ، والاميرة ذات الهمة ونجلها عبدالوهاب ، والظاهر بيبرس ، وصلاح الدين الايوبي ، وابي زيد الهلالي .

* * *

وكان الفصل الرابع قصيراً نسبيا .

وقد عرج الكاتب فيه على المعارف العامة كالمعارف الجغرافية والفلكية والطبية ، وسر تفوق العرب بها وامتيازهم فيها .

ومثيل ذلك الفصل الخامس ، فقد كان قصيرا ايضا . وقد تحدث الكاتب فيه عن القرآن والحديث .

ولعلنا لا نعدو الحق ان قلنا ، في معرض الاستنتاج ، ان الكاتب قد تقيد للغاية بموضوع حديثه ؛ اي بالحديث عن المكونات الاولى (الجاهلية) للثقافة العربية الاولى ، وكان شديد الايجاز في العبارة ، متجنبا الاسهاب والاطناب .